موت تزيفتان تودوروف

ـ أحاديث مختارة ـ

(1) interview Maga Catherine Halpen - Héloise Lhérété

ترجمة
أ. د . سليمة لوكام
جـامعة سوق اهـراس

توفّي مؤرّخ الأفكار يوم الثّلاثاء 7 فيفري 2017 عن عمر يناهز 77 عاما، وهو من رواد النّقد النصّاني، ومن المقرّبين من "رولان بارت" و "جيرار جينيت". وُلد "تودوروف" سنة 1939 في مدينة صوفيا ببلغاريا، واستقرّ نهائيّا في فرنسا منذ 1963.مع بداية الثّمانينيّات عكف أكثر على المشكلات التاريخيّة والأخلاقيّة مثل مسألة "الأنظمة الشموليّة".

نقترح عليكم (إعادة) قراءة حوار وافق على إجرائه معنا سنة 2009.

في "التوقيع البشري" يروى "تزيفتان تودوروف" قصته من خلال عرض أسماء كبيرة في الفنّ والفكر، و هو في ذلك ينطلق من حدس مفاده أنّ المعنى فيما هو إنساني لا يتشكّل إلّا من خلال قصّة الإنسان ذاته. و "لتودوروف" قبل أيّ شيء حضور، قامة مديدة، ونظرة جذلى، ونبرة بطيئة ومنغّمة ، يسيّر حياته في شقّته العلويّة، وفيها استقبلنا بحرارة وانتباه.

---

1) نشر هذا الحوار المعنون بـ «La vie est une œuvre en soi » في مجلة العلوم الإنسانيّة:« Sciences Humaines» الشّهريّة، عدد 210، ديسمبر، 2009. تحت عنوان «Le travail en quête de sens».

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1342

بعد مرحلة شباب في بلغاريا، و ديكتاتوريّة شيوعيّة ، نفي "تودوروف" إلى فرنسا، وفيها اشتغل في أوّل أمره إلى جانب "رولان بارت" على الأشكال السرديّة في الأدب. في ذلك الوقت كان يرغب في تشييد نظريّة علميّة للأدب باحتذاء مزدوج للشكلانيين الرّوس و اللّسانيّات البنيويّة على نمط "ميخائيل باختين" و "رومان جاكوبسون".

وقد صارت كتبه مثل " مدخل إلى الأدب العجائبي" (1970)، و"شعرية النثر" (1917)، و"نظريات الرمز"(1977) من كلاسيكيّات الدراسة الأدبيّة منذ صدورها.

قال "تودوروف" موضّحا ببساطة "**تغيّرت الأمور**"، وذلك بعد أن أمضى عشرين سنة في التدقيق في دراسة الأشكال السيميائية ، ثمّ بدأت حماسته للبحث في العمق، فاشتغل بشكل متناوب، من مؤرّخ للغزو الإسباني، إلى معلّق على "مونتاني" ، إلى مفسّر لأعمال الفنانين التّشكيليين الفلاميين ، إلى باحث في علم الأخلاق، إلى مفكّر التنوّع الثقافي. وقد تخلّى عن النظريّة البنيويّة ليتسلّل إلى الموضوعات السياسية و الأخلاقيّة. قال مضيفا: "**لقد خرج نقاش الأفكار الذي كان ممنوعا في بلغاريا في مرحلة شبابي من المنطقة الحمراء.**"

بدا كتاب "تودوروف" الجديد "التوقيع البشري – مقالات 1983-2008" الصادر عن دار "سوي" 2009 شبيها بصاحبه، فقد جاء انتقائيّا و خاصا ونفّاذا، يغرق القارئَ في عمق حيوات شخصيات تعدّ نماذج مثل "جيرمين تيون" و"رايمون آرون" ، و "إدوارد سعيد" و "رومان جاكوبسون" و "ميخائيل باختين" و مثْلهم "لاروشفكو" و "موزار" و"ستندال" و "غوته". من خلال لقاءاته بهؤلاء ، رسم "تودوروف" بطريقة مسبوكة بورتريهه الشخصي، إنّه "بورتريه صينيّ" متشكّل من أذواقه هو تجاه الآخرين ، وهنا قال مؤكّدا : "**إنّنا لا نفكّر إلّا من خلال الانعكاس.**" يمكننا قراءة هذا الكتاب وكأنّه رواق رسومات خاصّة (بورتريهات) لرجال ونساء ممّن يطيب معشرهم و كأنّنا أمام متحف ذاتيّ خاص موجّه للهواة المتنوّرين. و يبقى الأهمّ بعيدا .

قدّم "تودوروف" أطروحته الهامّة: إنّ شأن الباحث في العلوم الإنسانية كشأن الكاتب، لا يحلّل الوقائع إلّا انطلاقا من معيشه الخاصّ، على خلاف الباحث في العلوم الطبيعيّة ، إنّ عليه أن

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1342

يزيل الجدار بين حياته وعمله.وبأيّ حال من الأحوال، فالأمر لا يستقيم بأن نستسلم لسراب الاستبطان، و ننصرف للبحث عن "أنا" أصيل، إنّ علينا أن نكون فطنين ونحن نمعن النّظر في اللقاءات التي تصنعنا : " **نحن مشكَّلون بصفة كليّة من الآخرين، ممّا منحوه لنا، من انطباعاتهم و من ردود أفعالهم، لا وجود ل "أنا" عميق.**"

و "تودوروف" في الحقيقة سيميائي لم يصل إلى درجة الفيلسوف، يتميّز على الدّوام بقدرته على التأويل، وقد سخّر ذكاءه كلّه في الاشتغال على أعمال الآخرين، أمّا فِكْره فيبهرنا لأنّه يُعمل فيه الشكّ.و دورانه النظريّ حول ذاته من السيميائيّة إلى الإنسانويّة، واستطراداته حول مسألة الشرّ ، وأحاديثه المرتجلة عن الفنّ والحبّ، وكذا حماساته ومعاركه ،كلّ ذلك منحه صوتا متفرّدا في المشهد الثقافيّ الأوربيّ.

بالنّسبة إليه يتحقّق التواضع الحقيقيّ بطموح لا حدّ له، إنّه يريد أن يمسك بجوهر الروح الإنسانيّة لأنّه يؤمن بأنّ الحكمة البشريّة موصولة بهذه المعرفة.كان بإمكانه أن يتوقّف لمّا بلغ سنّ السبعين، ويتفرّغ للعناية بحديقته، لكن لا، فقد واصل انخراطه بشكل دائم في مشاريع جديدة، ومحاضرات وبحوث وكتب. "**يبدو لي أنّه كان بالإمكان الذهاب أبعد من هذا في فهم البشر، فهذا الأمر لم يتّضح بعدُ بما يكفي.**" ذهب "تودوروف" إلى أقصى ما يمكن، فقد عزم على أن يتقصّى النّظر في وضعياتنا نحن البشر، وفي نقاط ضعفنا، ، وفيما يظهر منّا ويبرز.

ما معنى عنوان كتابكم الجديد "التوقيع البشري"؟

كنت قبل هذا قد فكّرت في هذه الصيغة "التوقيع البشري"، فلمّا وجدتها في كتاب "جيرمين تيون" أثارتني العبارة لأنّها بشكل ما اختصرت مساري الشخصي، وجدت فيها نقطة انطلاقي وهي العلامة، ونقطة وصولي و هو الكائن البشري. لمّا بدأت بحوثي في سنوات الستّينات كانت دراسة العلامات بكلّ أنواعها تشكّل إطارا عاما، ورغبت في استثمار واجهاتها من خلال نظريّة الكلام أو نظريّة الأدب، أو نظريّة الفنون، ثمّ شرعت في البحث فيما يختفي وراء تلك العلامات، ووجدتني أنجذب إلى فهم السلوكات البشريّة في ذاتها، وليس مجرّد الوقوف على أشكال عباراتها .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1342

وفي الآن ذاته، كنت قد وجدتُ نفسي داخل تقليد (عُرف فلسفي) هو الإنسانويّة، وكثيرا ما كنت أتساءل عن طبيعة الاختيارات البشرية سواء أكانت سياسية أم أخلاقية أم اجتماعية.

قد لا أحتكم على تعريف مطلق لما هو "بشري"، فأنا أُولي عناية أكثر لدراسة الوضعيات الكبرى التي يتخذها البشر في مواجهة التحدّيات التي يواجهونها على امتداد وجودهم.

في هذا الكتاب قمتم بتلميع مجموعة من البورتريهات: جيرمان تيون ، ر. آرون ، إ.سعيد ، ر.جاكبسون ، م.باختين ، ...هل يمكن لحياة الكتاب أن تضيء أعمالهم؟

لّما كنت طالبا ، كان ثمّة نوع من الدوغمائيّة سائدا مفاده أنّه يجب أن نعرف "الإنسان" و"العمل"، وكان أساتذتنا يرافعون عن وجود علاقة سببيّة بين المصير الشخصيّ للمؤلّف و محتوى كتبه ، وكان أنْ عَارَضَ جيلي هذه الدوغمائيّة.

في سنوات السّتينات، كنّا نعتقد أنّ حياة المؤلّف، أيّا كانت، لا تقدّم إلّا النّزر اليسير في مساعدتنا على القراءة، كنّا جميعا نشبه "مارسيل بروست" "ضدّ سانت بيف". ومن وجهة نظر بنيويّة، كان الاهتمام منصبّا على القواعد التي كانت تتحكّم في المحكيّات، والمعاني الاستعارية للشّعر، أمّا المرجعيّة السّير ذاتية فكانت تبدو لنا عديمة الجدوى.

وها أنا اليوم، لا أرى أبدا أنّ الحياة تفسّر العمل، بل على العكس، أنا أومن أنّ الحياة نفسها عمل، وليست حياتنا إلّا مجموعة من الأعمال، بعضها شفويّ والآخر سلوكيّ ، ولتفاعلهما دلالة دلالة كبيرة.

كيف ذلك؟

في هذا الجانب تقدّم لنا "جيرمان تيون" مثالا حيّا، فقد زاولت دراستها في الإثنولوجيا في سنوات الثلاثينيات، لتنتقل للعمل في الميدان في الجزائر. بعد الهزيمة، انتظَمتْ في المقاومة فاعتُقلت وسُجنت ثمّ نُقلتْ إلى المحتشدات، وقد طُلب منها تقديم تقرير عن الإثنية التي درَسَتْها وهي "الشاوية"، فاكتشفت بأنّها لم تعد قادرة على إعادة طروحاتها التي كانت قبل الحرب على الرغم من أنّها لم تتلقّ أي معلومة جديدة عن هذه الإثنية. كان الشيء الوحيد الذي تغيّر ، ذاتها هي، فقد

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1342

عَلَّمَتْها حياتها في "رافسنبرك" تأويل السلوكات البشرية بشكل مختلف مثل أثر الجوع، مكانة الشرف، معنى التضامن، وهكذا تدخّلتْ هويّتها في عملها العلمي.

والشيء نفسه ينسحب على العلوم الإنسانية الأخرى، فليس تجميع الوقائع هو ما يصنع عظمة المؤرّخ أو عالم الاجتماع أو حتّى الكاتب، وإنّما هو إيجاد العلاقات بينها وبين المعنى الذي يمنحه إياها ، وفي المقابل، يكتمل هذا التعالق بالموضوع بواسطة جهاز ذهنيّ هو في الحقيقة نتاج وجودنا ذاته. و إذن، فدراسة العمل لا تمكّننا من وضع هويّة العالم أو الكاتب بين قوسين، وهو ما أردتُ إبرازه في "بورتريهاتي".

ما الذي قادكم في حياتكم الخاصة إلى إعادة توجيه فكركم؟

إنّه الاندماج الجيّد في المحيط الذي كنت أعيش فيه، وتجربة الأبوّة في مقام أوّل، مع ولادة طفلي الأوّل في 1974 اكتشفت في نفسي أحاسيس جديدة ذات قوة مذهلة، وقد نتج عن ذلك إحساس بمسؤولية كبيرة.

لا يبقى في حياة الفرد الذي لم يتجذّر اجتماعيّا إلّا التفكير في العمل، فمثلا الأطروحة التي نكتبها هي العالم في ذواتنا، إذا أحسستم باستمرار بنداء طفلكم، يصبح من الصعب الحفاظ على حدّ عازل بين حياتك وفكرك.

كنتُ مسرورا لّما تجاوزتُ هذه المرحلة من الانغلاق في عالم معزول لأنّني كنت بصدد البحث عن علاقة ذات دلالة بين ما كنتُه و بين ما كنتُ أشتغل عليه لكن دون أنقلب إلى السيرة الذاتية.لقد قادني هذا إلى الاهتمام أكثر بالعالم الذي أعيش فيه،و لم أعُدْ أهتمّ أبدا بالمعرفة المجرّدة.

في "التوقيع البشري" درستم المؤلّفين من منظور المحن الأليمة التي مرّ بها هؤلاء كالمرض و الحزن وتجربة المعتقلات ، هل يجب أن نتألّم لكي نفكّر؟

إنّه سؤال مرعب، ولا أجرؤ أن أقدّم له جوابا، وليس ذلك إلّا لأنّني لم أتألّم كثيرا في حياتي، وقد لاحظت فعلا وجود علاقة محيّرة بين المعاناة وبين القدرة على الذهاب بعيدا في معرفة البشر،

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1342

وكأنّ السعادة تقطع الطريق أمام الفهم الأكثر حيويّة إلّا أن تكون نظريّتي خاطئة، و هو أمر مُطمئن بالنسبة إليّ ، أو أن تكون صحيحة وأكون بذلك مفكّرا حقيرا.

لعلّني أحاول تعويض غياب التجربة المؤلمة في حياتي الخاصة بولعي بحياة الآخرين، وبشكل خاص البشر الذين صادفوا في مسارهم أمرا ما جارحا أو مؤلما بل أكثر من ذلك حدثا مأساويّا. أنا لا أفتتن لا بالأبطال ولا ب "الوحوش"، أفضّل أن أفهم البشر بإمكانات الخطإ فيهم، أولئك الذين تشبه حياتهم "حديقة غير مكتملة" على حدّ تعبير "مونتاني"، يبدو لي أنّ هؤلاء هم الأكثر تمثيلا للظرف الإنساني.

كتبتم: " كلّ مثقّف هو منفيّ من ظرفه الإنساني، لقد عشم النفي من بلغاريا إلى فرنسا ، كيف يمكن لهذه التجربة أن تساعد كم في تشكيل فكرتكم عن العالم؟

أعدّ نفسي رجلا مغتربا، ليس لأنني غيّرت بلدي فحسب، بل لأنّني أيضا أميل إلى إلقاء نظرة اغترابية على العالم.بهذا المعنى، يتميّز المثقّف المناضل، فليس دوره أن يقوم بعمل لبلوغ غاية معيّنة، بل لكي يفهم العالم أكثر، ومن أجل هذا يجب عليه أن يقتلع نفسه من التسليم بالبديهيات.المنفيّ لا يتقاسم العادات نفسها، ولذلك يندهش أمام ما يبدو بديهيا مع مواطنيه الجدد، يقيم المَنْفَى مسافة بين ذاتنا وبين المحيط الذي نعيش فيه فيكون ملائما للفكر، دون أن يصل الأمر لأن يصبح ضرورة، فكثير من النّاس يشعرون بالانفصال دون أن يعيشوا تجربة النفي الجسماني.

علينا أن نقول فقط إنّ تغيّر الوطن لّما يتمّ دون مآسي يسهّل الانفصال الذي يقتضيه عمل المثقّف، وقد يُؤدَّى هذا العمل بشكل سيّء لّما نُطابق بيننا وبين الممثّلين الذين ندرسهم.

ما العلاقة التي تقيمونها مع الالتزام السياسي؟

لقد كبرتُ في بلغاريا في سنوات ما بعد الحرب، والنظام الشمولي الذي كان سائدا لا يشجع على الالتزام، ولم يمنح إلّا مسارين ممكنين: إمّا أن تصنع لنفسك مسارا داخل الحزب الشيوعي، وإمّا أن تبتعد نهائيّا عن الحياة العامّة. وعلى غرار الكثير من البلغاريين، فقد اخترت

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1342

السبيل الثانية، وأحدثتُ قطيعة جذرية مع أولئك الذين يسيّرون البلد. و هكذا، تلقّيتُ نوعا من اللقاح الذي جعلني ولفترة طويلة بم نأى عن كلّ مصلحة سياسيّة.

وقد تغيّرتُ منذ سنة 1973، وهي سنة حصولي على مواطنتي الفرنسية، وشيئا فشيئا بدأتُ أحسّ بأنّني معنيّ، فاهتممتُ بموضوعات تشرّبت بالقيم الأخلاقية والسياسية مثل الالتقاء بالآخرين، منابع العنف، تجربة المحتشدات، خيانة الذاكرة حتّى إنّني كتبتُ كتابا صغيرا عن الحرب في العراق، ومع هذا لم أصبح مناضلا، وليست لديّ بطاقة من أيّ حزب، ونادرا ما أوقّع على عريضة، ولكن يحدثُ أن أتّخذ موقفا، فقد تدخّلت مثلا زمن إعلان مشروع وزارةٍ حول "الهويّة الوطنيّة" حين بدت لي هذه الفكرة غير مؤسّسة على المستوى الانثروبولوجي، وضارّة على المستوى السياسي.

تقدّمون نفسكم باعتباركم معتدلا سياسيّا ، ألا يمكن أن نكون معتدلين إلى حدّ الإفراط؟

في التاريخ المعاصر، يمكن أن تعدّ محاضرة ميونيخ لسنة 1938 مثالا للاعتدال المفرط. آنذاك كانت القوى الغربية تهادن الاعتداء النازي ثمّ استسلمت له. هل تعلّق الأمر هنا حقّا بوضعيّة اعتدال؟ من الأَوْلى عدّه عملا فيه قصر نظر، إنّ تجنّب العنف لا يليق إلّا إذا كان الخطر غير واقعي، بينما ما كان سنة 1938 هو أنّ التهديد الهتلري قد صار أمرا بديهيّا وظاهرا للعيان.من جانبي، أرى نفسي منضويا ضمن شكل آخر من الاعتدال، وكما تعلّمنا من "منتسكيو" : "سلطة بلا حدود هي سلطة غير شرعية."

إنّ الاعتدال في معناه الأظهر ليس هو الميوعة، وإنّما وضع حدّ لأيّة سلطة بسلطات مضادّة، إنّه عملية تنظيم للفضاء العام الذي يوضع فيه التنوع البشري في الحسبان.لا يمكننا الاستسلام أمام العنف، بل على العكس، بالروح نفسها أدافع عمّا أسمّيه الحضارة، أي قدرتنا على الاعتراف باختلافنا عن الآخرين دون أن يكون ذلك بإنكارهم ضرورة .ومع هذا، هل أكون معتدلا حدّ الإفراط؟ إنّ عليكم أنتم الإجابة عن ذلك.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1342

عدتم في كتابكم مرّات عديدة للحديث عن مسألة الشرّ. و ترَوْن أنّ الشرّ متجذّر في الطبيعة البشريّة، فإذا كان موجودا في كلّ واحد منّا، كيف نقاومه؟

أنا لا أومن بشرٍّ كونيّ وثابت، ولكنّنا في الحقيقة نجده على امتداد التاريخ، وبأشكال مختلفة، إنّه يتأتّى من حاجة أحدهم للآخرين، وحين لا يوافقه هؤلاء عفويّا على ما يرغب فيه.هذا التمركز حول الذّات يكون خطيرا بوجه خاص حين يكون جماعيّا، وأسوأ الجرائم ارتكبت لحماية "النحن" في مقابل تهديدٍ قادمٍ من بعيد.ومثل هذه الثنائيّة المَانَوِيّة التي تطابق بين "نحن" و الآخرين و بين "صديق وعدو"، أو أسوأ من ذلك ب "خير وشر"، تكون قاتلة، وأنا أقاوم هذه المَانوية بكلّ قواي ، وهي قوى ضعيفة.ولأجل هذا، أقوم بمتابعة أشكال المانويّة و كذا طرائق الصمود أمامها، وأذكر ذلك في كتبي ، وبهذا المعنى أظلّ قريبا من أفكار الأنوار ، أي أنّني أقاوم الشرّ بواسطة المعرفة.

أيّهما أكثر قدرة على تنويرنا فيما يخصّ رؤيتنا للبشريّة ، العلوم الإنسانيّة أم الأدب؟

الأدب هو أوّل العلوم الإنسانية على امتداد قرون طويلة، وقد كان الوحيد في ذلك، و موضوعه السلوكات البشريّة، والدوافع النفسيّة، والتفاعل بين البشر."ماركس" و "إنجلز" قالا: "إنّ أفضل تمثيل للقرن التاسع عشر لا يمكن أن نجده عند علماء الاجتماع، ولكن عند "بلزاك" الذي كشف حقيقة العالم الذي كان يحيط به. واليوم أيضا، لو أنّ شابّا يسألني كيف كانت الحياة في ظلّ نظام الدكتاتورية السوفياتية، سأقول له: "اقرأ (حياة ومصير) ل "فاسيلي جروسمان" ، وهي رواية وليست كتابا في العلوم الإنسانيّة."

ومن جانبه، أكّد "ستندال" أنّه لا توجد حقيقة مفصَّلة عن الجنس البشري إلّا في الرّوايات، وتظلّ هذه الحقيقة المفصَّلة خاصيّة أثيرة بامتياز في الأدب، باستثناء طبعا الحالة التي يكون فيها الأدب في "خطر"، أي حين يقتصر الأدب على ألّا يكون أكثر من لعب على المواضعات، أو أن يصف بكيفيّة مغرقة في الاختزال التّجربة الذّاتية للكاتب. وفي هذه الحالة، يفقد الأدب نظامه الخاص في البحث عن معرفة العالم، أمّا فيما عدا ذلك، فسيظلّ الأدب معينا لا ينضب، ولا يمكن

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1342

تعويضه بأيّ شيء.يوجد في الانجليزية مفردة تحدّد جيّدا هذه الحركيّة المنتظمة المميّزة للمعرفة هي كلمة Insight وهي تعني الولوج داخل الموضوع المدروس وفهمه، وهو الأمر الذي يجهد الكتّاب أنفسهم للقيام به ، وتبقى العلوم الإنسانية مَدينة للأدب بالكثير.

إنّ المحكيّات عن "أوديب" و "أنتيغون" تنطوي على قوّة تجعلها قادرة على الاستمرار في الإيحاء بإمكان الإجراء عليها.و يتضح بجلاء أنّ ما يحمله الأدب من رؤى للعالم يقدّم قضايا غير مؤسسة منطقيا وقابلة لأن تُراجع وتُختبر، ولذلك يجب أن نقوم بتأويلها حتّى نتمكّن من القول:" هذا ما نقله لنا شكسبير عن سلوك الكائن البشري في هذا الظرف أو ذاك."يحتاج الأدب إلى وسائط، وهذا ما يجعل أمر إفادته من المعارف التي يصل إليها صعبا، ولكنّنا نلتقط تلك المعارف بحدسنا، ونحسن تحسّسها.و أيّا كان الشأن، فهو من أقوى الأسباب التي تحفّزنا على القراءة ، ولو لم يكن ذلك المنظور في معرفة أفضل للعالم، فلمَ نُتعب أنفسنا في قراءة مغامرات أناس لا نعرفهم، أو أدهى من ذلك ، أناس لم يُوجدوا أصلاً.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1342